بعد قرار التقسيم :

القول للسيف ليس القول للقلم !

للأســـتاذ علي الطنطاوي

لو كان للكلام الآن مكان لقلنا فبذذنا القائلين ، ولبعثناها في الأرض مقالات تشتعل حروفها ناراً ، وتتفجر كلماتها قنابل ، ويكون منها براكين تنفث الحمم ، ونحن (العرب) أقرت لنا الدنيا بأنا ملوك المقال ، وألسنة البيان ، كما أقرت لنا أنا أرباب الفعال ، وأبطال الميدان ، ولكن عهد الكلام قد انقضى ، وستسمع الدنيا غداً عنا ، كما سمعت منا ، أحاديث تشيب النواصي ، وتحرق فؤاد العدو ، وتحير من هولها ذوي الأحلام ، وسترى الدنيا أن الذي نهدد به من القوة التي خبأها الدهر في أعصابنا ، والتي صنعها لنا ميراث آباء صدق ، في عشرة آلاف معركة مظفرة خاضوها ، ومائة ألف قلعة منيعة اقتحموها ، وألف ألف روح طاهرة ، في سبيل الله والحق أزهقوها — حقائق ، ليست خطابيات تسود بها الصحف ، ويتسلى بها القراء .

ولئن أخذت الأيام السلاح والمال منا ، فوضعتهما في أيدي عدونا ، فما أخذت منا إيماننا ولا مضاءنا ، ولا سلبتنا عزتنا ولا نبلنا ، ولا بدلت جوهرنا ، ولا جعلت عدونا مثلنا ، لأن الجبان الشاكي السلاح ، لا يندد بالسلاح بطلا ، والبغل المحلى سرجه بالدر لا يصير بالدر جواداً ... والأمم الواغلة على المدنية ، العابثة بالمبادئ الإنسانية ، المتخذة العلم ذريعة إلى التدمير ، والفن وسيلة إلى الفساد ، ليست مثل الأمة التي حملت وحدها أمانة المدنية دهراً طويلا ، فما عرفت يد آمن عليها ، وأنفع لها ، من يدها : أخذت المنجل فنقّت روضة الحضارة من الأشواك ، ثم مهدتها وحرثتها وشقت لها الجداول ، وأقامت لها السدود ، وسقتها الماء عذباً نقياً ، حتى إذا بسقت أدواحها ، وامتدت ظلالها ، وملأ الجو ريّا زهرها ، وانتشى الناس بخمرة عطرها ، وارتووا بعصير ثمرها ، وعاشوا بوافر خيرها ، سلمناها إلى هؤلاء . . . المتمدينين . . . ليحفظوها للأجيال الآتية ، فلم يكن منهم إلا أن رموا عليها قنبلة ذرية ...

وما ذا تصنع القنبلة الذرية ؟ إنها تميت ولكنها لا تحيي ، فهل عندهم قنبلة أخرى تحيي هذه الحكومة اليهودية التي ماتت من ألفين وخمسمائة سنة ، وتعيد إليها الروح ، وإذا هم استطاعوا اليوم إقامتها وتسنيدها بالأخشاب حتى تبدو كأنها حية ، ولن يستطيعوا ، فهل يبقون معها دائماً يحمونها أن يبتلعها هذا اللج

غيره فقال في صدر كتابه : « هذه صورة شاعر من أكبر شعراء العربية في ساعات لهوه ، وما كانت لتعنينا لولا ما أوحت إليه من روائع فنه . فإذا نحن قصرنا القول هنا على مجالس شرابه ، ومن حوله غلمانه وقيانه ، فذلك أن الخمر كانت عروس شعره ، بل هي شيطانه » .

وقد وفى الكتاب بهذا الغرض من ناحية الترتيب والتبويب على الخصوص .

والذي يطلب منا أن نلاحظه عرضاً في سياق التعقيب على « ألحان الحان » أن مؤلفه الأديب تجاهل كل رأي لنا في موضوعات كتابه ولا سيما رأينا في خمريات الخيام وخمريات المعري وعلاقتهما بخمريات أبي نواس ؛ مع أنه يعلم هذا الرأي حق العلم ويقرر لمحواه كل التقرير ، وهو أن سكر الخيام هرب من مشكلة فلسفية ، وأن سكر النواسي عكوف على لذة حسية ، وقد عقد لهذه المقارنة فصلا خاصاً في كتابه ، وأتبعه بفصل عن المعري وما قاله في الخمر ، وحرص على رد الآراء إلى أصحابها في الهوامش وثبت المؤلفات ، ولعله قدر أن الإغضاء عن ذكر « العقاد » يرضي أناساً كان أرضاؤهم يومئذ مما يعنيه .

إلا أننا نشير إلى هذا التجاهل الذي لا عجب فيه لنقول إنه ينفعنا ولا يضيرنا ، فلا يقولن قائل مع هذا أن العقاد يعطي فوق حقه من معاصريه ، بل له — أو عليه — أن يقول : إن حقه قام على رغم الجهلاء والمتجاهلين ، وأنهم لو استطاعوا لأنكروه ، ولكن إنكاره بحمد الله مما لا يستطاع .

عباس محمود العقاد

العربي الذي يحيط بها ، أو تهدمها موجة عاتية من موجاته ، فتأتي عليها من القواعد ؟ ... أفلم يفكروا في هذا ؟

أنا أسمع من زمان أن السياسة لا أخلاق لها ، ولكني لم أعلم قبل اليوم أنها لا عقل فيها ... ولا حياء !

أفلا يستحي هؤلاء (المحترمون) أعضاء هيئة الأمم المتحدة أن يفكروا بالأمس على هتلر أنه سلب حقوق اليهود فأعطاها الألمان ، وأنه أراد العلو في الأرض بغير الحق ، وأن يثوروا عليه الدنيا ، دفاعاً عن الحق وعن الديمقراطية ، ثم يجيئوا اليوم فيفعلوا ما لم يفعله هتلر ، ولا موسوليني . وما أدافع عن الاثنين موسوليني ، ولكن أقول إنه كان كالذئب يقتل الخروف ليأكله ويتغذى به ، لذلك عدا (لا رحمه الله) على طرابلس ، أما هؤلاء فيعتدون ليغذوا غيرهم ، ويبيعون دينهم بدنيا سواهم !

أو لا يعقلون أيضاً ؟ ! ولا يخطر على بالهم أنه ربما نشأ هتلر آخر ، يكون اسمه ستالين مثلا ، وربما احتاجوا أن يثيروا الناس عليه مرة ثانية باسم الحق والإنسانية وميثاق الأطلنطي ... فهل يجدون في الأرض مغفلا واحداً يصدقهم ، بعد الذي رأى منهم ؟

أو لا يعتبرون بما انتهى إليه هتلر ، ومن قبل هتلر نابليون ، ومن قبلهما كسرى وقيصر ، وكل طاغية جبار ؟ فهل دامت الدنيا على أحد حتى تدوم لهم ؟ أهم أشد سلطاناً في الأرض من الإسكندر ، وتيمورلنك ؟ لقد كان الاسكندر ، وكان تيمور بطلين ليس أمامهما كفؤ لهما ، وهؤلاء مهما قويت كل دولة منهم ، فإن لها أكفاءهم أعداء في ثياب أصدقاء ، وسيضرب الله بعضهم ببعض ، ويريح الإنسانية منهم ومن حضارتهم ، ولا يبقى منهم إلا أخباراً يقرؤها غداً تلاميذ المدارس ، فيعجبون من أصحابها ويلعنونهم عليها . وهذا أمر محقق وإن كان يبدو الآن كالخيال .

أولا يفكرون أنه لو اتخذ مثل هذا القرار ملك عات من ملوك الحكم الطلق ، أو أمير ظالم من أمراء القرون الوسطى في أوربة ، لفضحة كتاب التاريخ ، وقالوا ، لص يأخذ مال زيد ليعطيه لعمرو ، وقالوا ، مجنون يجود بما لا يملك ، ولملأوا صحائفهم غيرة على الإنسانية وحقوق الإنسان . فلماذا يخرسون الآن فلا ينطقون ؟ لماذا لا نسمع من أوربة وأميركة ، أصوات من يدعون أنهم أنصار الحق وأن أقلامهم للانسانية ليست لفرد ولا لشعب ؟

لقد غضب أميل زولا لدريفوس ، فقالوا إنه رجل الحق والإنسانية ، وصدقنا ما قالوا ، فلم لا نلقى اليوم في الغرب كله زولا واحداً ، يغضب لأمة بقضها وقضيضها ، تزاح عن مكانها وتطرد من أرضها ، ليحل اللص الواغل عليها في محلها ، وتشترك في هذه المؤامرة الدنسة أمم الغرب كلها . ؟

لماذا يخرسون الآن ؟ الآن الظلم صار ظلماً منظماً ؟ الآن قطاع الطرق تركوا الجبال والمغاور وجلسوا في (ليك سكس) الآن محكمة التفتيش صار اسمها (هيئة الأمم المتحدة) ؟ الآن الجزائر أميركا وروسيا وفرنسا ، والشاة فلسطين ؟

خسأتم يا حلفاء الشيطان . . والله ما فلسطين بالشاة ولكنها القنفذ ، على ظهرها الشوك ، إنها السكين المشحوذة ذات الأربع شُعب ، إنها زجاجة السم الناقع ، فليتقدم لابتلاعها من شاء أن يفتحر ...

* * *

لا ، ما نريد أن نتكلم . ولو أردنا الكلام ، لدمغنا جباه هذه الأمم التي أقرت التقسيم بأربعمائة مليون لعنة ، تلقى التاريخ بها غدا ، وتلقى الله بعد غد ، وهي مخزاة لها ، وعرّة في جباهها ولكنا نريد العمل .

ونحن نعترف أننا لا نملك مثل أموال اليهود ، ولا مثل أسلحة الأميركيين ولكنا نملك سبعين مليون روح ، من روائها ثلاثمائة وثلاثون مليون روح ، نريد أن نزهقها كلها ، أو ندفع عنا هذا الظلم الذي تريدنا عليه أميركا وروسيا ، فهل عندكم من القنابل الذرية ما يكفي لقتل أربعمائة مليون ؟

أما نحن فإن عندنا من القوة ما ندمر به كل شيء لكم في بلادنا . . بضائعكم ومصالحكم ومدارسكم (وسمعتكم) فلا تستطيعون أن تأخذوا بعد اليوم بترولنا لتحرقونا به ، ولا أموالنا لتحاربونا بها ولا أولادنا لتجعلوهم أعداء لنا ، ولا تجدون فينا بعد اليوم من يسبح بحمدكم ، ونحن نصلي بناركم .

لقد خدعنا بفرنسا أولا ، حتى فزع إليها الزعيم مصطفى كامل وحسب أنها أمة الحرية حقاً ، وأمة حقوق الإنسان . .

وخدعنا بانكلترا ثانياً حتى ترك الملك حسين إخوانه في الإسلام وحلفاءه في المعركة ، وانحاز إلى العدو ، وفعل فعلته التي فعل ...

وخدعنا بأميركا ثالثاً ومبادىء ولسن ، وميثاق الاطلنطي .

وخدعنا بروسيا رابعاً ، والمبادىء الشيوعية المثالية التي تجعل الأرض جنة للفقراء . . فذقنا وبال ذلك كله علقماً مراً ، ثمالة كأسه تقسيم فلسطين فلن نخدع بهم بعدُ أبداً ، كفرنا بهم كفراً صريحاً لا تأويل له ، ولا شبهة فيه ، ولا رجوع عنه . كفرنا بكل شيء غربي ، إلا الأدب الإنساني والعلم التجريبي ، فما فيها شرقي ولا غربي . كفرنا بموسكو وواشنطون ، ولندن وباريس . . حين رأينا أنه لم يكن معنا من الأمم يوم التقسيم إلا أمم الإسلام وأمم كاليونان والهند حكمها المسلمون ورأت جمال الإسلام ، أفليست هذه حرباً صليبية دينية ؟ أليس أولئك هم المتعصبين حقاً ، ونحن المساكين نتهم بالتعصب ، لأننا (من حماقتنا) نقول أننا متعصبون ولا نتعصب ... وهم يتعصبون ولكن لا يقولون ...

أنا لا أقول في هؤلاء المؤتمرين بالحق والعدل شيئاً ، ولو أننا قلنا فيهم أقبح المقال ، لما جزنا عن القصد ، ولما حدنا عن الصدق ، ولا نقول إن العرب لا يقر لهم قرار ، حتى يمحوا بدمائهم هذا (القرار) ، ويطهروا ديار الشام من أقذار الصهيونية ، وينظفوا منازل العربية من أوضار الاستعمار الظاهر منه والمستتر . لا ، ولا أقول : سنفعل ، ولكن سأقول : فعلنا ... ولقد جاءت الأخبار بأن العرب شرعوا بالعمل ، وهذي طلائعه بدت من دمشق ، ودمشق قلب العربية ، من القلب ينبثق دم الحياة إلى الرأس والجوارح والأعضاء ...

هذي طلائعه وأوائله ، وأول الغيث قطر ثم ينهمر !

ولست أفخر بأن دمشق ثارت ، فما هي بأولى ثوراتها على الظلم ، ولا بأنها سبقت عواصم العرب كلها ، فدمشق أبداً السباقة إلى كل ما فيه إعزاز العربية والدفاع عنها ، ولكن أفخر بخمسة أمثلة ضربتها دمشق أول أمس ، فيها للعرب هدى ونور !

أولها : أن دمشق أدركت أن دعوى المساواة في الشيوعية كاذبة ، كدعوى العدالة في الديمقراطية ، وأنهم كلهم أعداء لنا يأتمرون بنا ، ولصوص يتفقون علينا ، وذئاب تجتمع على نهش لحومنا ، وشرب دمائنا ، فدمرت دار الحزب الشيوعي بعد ما رأت فيها يوماً كيوم مارس ١٩٤٥ .

ففي مارس كانت النار تطلق على أطفالنا ونسائنا من نوافذ دار البعثة الفرنسية في (الشهداء) بأيدي الفرنسيين وأذنابهم حمير الاستعمار ، وأمس كانت تطلق النار على شبابنا وأطفالنا من نوافذ دار الحزب الشيوعي في (الشهداء) بأيدي حمير الاستعمار ، أذناب موسكو

وثانيها : وهذه خلة في دمشق لا توجد في غيرها ، أن الأحزاب كلها اجتمعت أمس على اختلافها ، وتقاربت على تباعدها ، فلم تبق في دمشق حزبية ، لأن الحزبية في مثل هذا اليوم تعد في الشام خيانة وطنية .

وثالثها : أن الحكومة كانت مع الشعب ، وأن رئيس الجمهورية خطب في الشباب والطلاب يدعوهم إلى الجهاد ، ولا عجب فقد كان شكري بك القوتلي الوطني المجاهد مقارع الاستعمار قبل أن يصير فخامة السيد شكري القوتلي رئيس الجمهورية السورية

وأنه خطب مثل ذلك رئيس الوزارة السيد جميل مردم ، ووزير الداخلية السيد محسن الرازي ، ووزير المعارف الصديق السيد منير العجلاني ، وأن ثلث نواب المجلس تطوعوا مع المطوعين لنصرة فلسطين . وأنها لم تسق كتائب الشرطة وفرق الجنود ، لضرب وجوه المتظاهرين ، وسد الطرق عليهم ، وكل ما صنعته الحكومة أن حاولت منع الناس من الأذى ، فلما رأت أن الحماسة طاغية وأن المنع لا يكون إلا بإيذاء الناس لم تستطع أن تحتمل مقالة التاريخ عنها : « إن حكومة فلان وفلان ، ذبحت شباب البلد لأنهم خرجوا يدافعون عن فلسطين » وما في الشام رجل واحد يرضى أن يكون رئيس وزارة ، وأن تنسب إليه هذه المرة !

وكان أجل من ذلك كله . أن قررت الحكومة حل الحزب الشيوعي ، ومحو هذه البقعة النجسة عن وجه دمشق وطرد الموظفين الشيوعيين ، وكانت حسنة من حسنات (المحسن)

ورابعها : أن دمشق أغلقت ملاهيها وسينماتها إلى أجل غير مسمى لأن الأمة التي تجد حقاً في جهاد هو لها مسألة حياة أو موت ، لا تفكر في تسلية ولا لهو ، وإن هي فعلت كانت أمة لاعبة كاذبة .

وخامسها : أنها جمعت البضائع الصهيونية ، والأفلام